اليه النفوس في زمن الاحتلال. ففصل الرواية الاول ما هو الّا مونولوج أوري الذي يُفتتح باعتراف قاس: «لا. لا. انا اوجدتهم كلهم. اريدك ان تصدقني يا حلمي. هذا سيسهل علينا الاثنين، شوش التي احببتها، وشوش التي تركتها قبل ثلاثة ايام، وكاتسمان الذي ظل بعيداً جداً في ايطاليا، والفتى الذي مات من الحب، الذي لا اعرف حتى اسمه. كلهم. حتى انت حلمي. ولتعرف انه من الاجدى لك ان تكون هذياني. لدي هدوء وامان والامور مثلما تبدو عليه تماماً؛ لا مفاجآت بالمرة. وبالطبع، ما كنت لاعرض عليك ان تكون جزءاً من حياتي. هناك أمر خطير جداً ومخادع، ولا شيء مثلما يبدو للعيان. لكن على اعتبار انها قصة يا حلمي، على اعتبار انها كان يا ما كان ؟» (ص ٧).

بهذا الافتتاح المونولوجي يسجل لنا اوري انهياره، الذي قاده الى مغارة حلمي العربي. فلقد ادرك اوري، بعد مدة من وجوده في الضفة الغربية، انه يفقد ثقته في كل الاشياء؛ فهو لا يستطيع ان يحقق شيئاً من مثالياته واحلامه الاصلاحية؛ لذا يرى انه «يصعب الايمان بنا كلنا؛ نحن كان يا ما كان فقط؛ واذا كان لدينا شيء حقيقي، فانه ليس سوى الألم الذي نستطيع ان نسببه، وحياة الله» (ص ١٦).

لقد عرف اوري، الذي يتمزق في عالم ليس له، ان «شيئاً ما أصابه بخلل» (ص ٩)، فيهرب للبحث عن شيء يقربه الى عالمه، ومن نفسه، ليقدر على مواجهة ما يحدث في المناطق المحتلة.

تشكّل شخصية اوري، في الرواية، خلافاً لباقي الشخصيات الاخرى، عالماً متكاملاً يتوزع على طول فصول الرواية. ومن هذه الفصول التي تتناول شخصية اوري نستطيع ان نقترب أكثر وأكثر من عالم هذه الشخصية البريئة الغضة التي تجد نفسها مأزومة، جراء ما يحدث في المناطق المحتلة، دون ان يستطيع ان يفعل شيئاً للاصلاح.

ومع ان اوري يؤمن، ايماناً عميقاً، ايمان المثالي المتفائل، بأن «ثمة جوهراً، ربما هو موجود غريزياً، من المحبة غير قابل للتجزئة في كل انسان» (ص ١٥٧)، الّا ان كل ذلك يسقط امام ممارسات وحقيقة الاحتلال.

لقد اقنع كاتسمان اوري بالقدوم والعمل معه في المناطق المحتلة. فاوري شاب بريء نتاج بيئة مهزومة تهرب من الواقع وتعيش في رعب. لذا، نرى ان ارتباطه مع شوش لم يكن غريباً؛ فهي تكمل صورة العالم المثالية الذي تعيش فيه؛ اضافة الى انها ـ شوش ـ لا تستطيع العيش بدون الحدث الذي يهدّد كاتسمان، وليد المنفى. ومن ناحية اخرى، فان كاتسمان بحاجة الى اوري ـ لابتسامة الجدي التي تسكن وتهدىء عامله المهدد بذكرى المنفى وعذابات الحرب العالمية الثانية.

ان اوري الذي يستمع لاعتراف امرأته الكاذب يصدم. وعندما يعرف ان شوش كذبت عليه يصاب بنوبة غضب حين يقوم الجنود بتفتيش احد البيوت ويسجن نتيجة دفاعه عن أهل البيت. حينئذٍ يدرك ان كل الكذب الذي عاشه يغلق عليه عالمه ويهرب في سيارة كاتسمان من السجن، ليسافر نحو مغارة حلمي، لاخباره بأن ابنه يزدي ـ الذي كان انضم الى منظمة التحرير الفلسطينية ـ قتل.

وما هروب اوري واتجاهه نحو مغارة حلمي الّا لأن «يخبره عن شوش التي يحاول ان يمحوها من ذاكرته، وليتعلم منه كيف يخدع الكذبة نفسها». ويرى حلمي باوري بندوقه الاخير الشبيه بيزدي الذي قتل، لذا يغريه بالبقاء ويحاول ان يعلمه ما لم يفهمه ويستوعبه جيداً يزدي، الذي تركه.

ان اوري الذي يستطيع الهرب من سحر حلمي لا يهرب. وعلى عكس ذلك، نرى ان الختيار